ماوراء القبور!!

زهيرة البيلى

هذا المخبر السرى يهى الطلعة والملامح ، نحيف ، أنيق ، جذاب بالرغم من الصلع الذى بدأ يزحف على شعره . . يملك هذا الشىء الذى يجعل من رجل البوليس التقليدى صورة محببة أو مكروهة ، فهو صاحب الابتسامة الساخرة الغريبة .

هذا المخبر السرى سيطرت عليه فكرة واحدة اقتنع بها تماما ، فهو لم يلتق أبدا فى حياته بمتهم أو امرأة إلا وجد شيئا يلوم به نفسه لأنه تشكك من النوع العام العادى ، إلا أنه يشكل جزءا أساسيا من طبيعته العميقة . . الشىء الذى جعل هذه القصة الغريبة أهمية خاصة . . لأنها نسجت بخيوط الخديعة والكذب .

فى أحد الأيام جاء صديق للمخبر السرى يخبره أنه سوف يذهب مع زوجته لزيارة عرافة معروفة ، إنها امرأة رائعة تكشف عن الغيب . . عن طريق اتصالها بإحدى الأرواح ، وهى لامرأة ماتت مقتولة منذ أيام ، وهنا ضحك المخبر السرى هازئا من صديقه ، رافضا الذهاب معه بحجة كثرة العمل وضيق الوقت ، لكنه أمام تصميم الصديق وتأكيده على أن العرافة تحكى وقائع جريمة كاملة بكل تفاصيلها - تراجع المخبر فى قراره .

وفى اليوم التالى صعد المخبر السرى السلم فى مبنى بورجوازى بمرسيليا خلف صديقه الذى أخذ يتنفس بصعوبة مثل عجل البحر . . وكان الصديق يعمل فى التدليك وهو بطل سباحة سابق ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون بدينا شديد السمنة . . بسبب التهابه بغشاء ريفية جذابة تحيد الظهى وتزوجها ، ولكنها نجحت فى قيادته طبقا لهواها .

وأمام إحدى شقق الدور الثالث . . فتح زوج العرافة الباب ، إنه رجل ليست له مهنة معينة يؤديها . إلا وظيفة واحدة محددة ، هى حماية زوجته ، ولقد انحصر عمله هذا فى كيفية الحفاظ عليها وتنسيق مواعيدها وشراء الحاجيات من السوق وطهى الطعام ومراجعة الحسابات .

وكان الزوج بهذا الوضع ضروريا لها بالفعل ، إذ كان يرتجها من العمل المرهق الشاق ، وكانت الوسيطة ضخمة الجسم ، ترتدى الملابس السوداء وشعرها الرمادى منسق فى خصلات متوازية . لذلك بدت كأنها ترتدى باروكة . . سارت العرافة بتباختر . فانبعثت منها رائحة لاهى بالريحان ولا بالبخور ، ولكن رائحة كريهة انطلقت لتثير تقزز الحاضرين . . وبالرغم من وزنها او ضخامة جسمها وصرامة وجهها فإنها بدت شديدة الحساسية . الشىء الذى لم يكف الزوج عن الإشارة إليه وأيضا للحاضرين . وكانت بالفعل من ذلك النوع الذى لا يقوى على تحمل أية مشكلة من مشاكل الحياة اليومية البسيطة .

رتب الزوج المقاعد حول مائدة مغطاة بخرقة من اللطيفة السوداء ، لتبدأ الوسيطة عملها على الفور . وبيدها اليمنى أمسكت « قلم رصاص » يتوق زوجها « بريه » طيلة الجلسة . وفوق كراسة صغيرة بدأت بكتابة كل ما يوحى لها به . أما عندما تكون الإيحاءات سريعة فإنها تتحدث بصوت مرتفع . .

كانت الساعة التاسعة مساء عندما ضغط الزوج بقدمه على مفتاح كهربائى لتنخفض الإضاءة تدريجا . . ووسط الضوء الخافت المحزن انطلق القلم على الورقة البيضاء بقوة واحدة ، لدرجة أن السن تحطمت . وأخذ الزوج يقرأ بصوت مرتفع الكلمات الآتية من العالم الآخر من وراء القبور .

أحس الحاضرون بحيرة وارتباك ، إذ وجدوا أنفسهم فى جلسة فريدة من نوعها . لا مثيل لها ، حتى المخبر السرى نفسه الذى لا يصدق تلك الأوهام بقى جامدا فوق مقعده لا يقوى على الحراك . خوفا من أن يسبب أى قلق يؤثر على الوسيطة والروح الزائرة .

أراد المخبر فقط أن تستمر العرافة فى أداء مهمتها . ولكن لأنه رجل بوليس فهذا لا يمكنه على الإطلاق من أن يكون مشاهدا مهذبا . بعد أن « برى » زوج العرافة قلم الرصاص أخذ القلم يجرى على الورق . . « إننا فى عام ١٩٣٩ فى مرسيليا . . زوجى تاجر بن ، منذ سنتين تحول إلى رجل عنيف قاس شرس . »

وهنا تحطمت سن القلم مرة أخرى . ولكن لتجهش الوسيطة بالبكاء . . بالطبع لم تكن هذه الدموع أية علاقة بالقلم الرصاص . ولكن تحولت الوسيطة وأصبحت تتصرف تماما وفقا للروح التى لبست جسدها .

لم تكن سوى صورة مجسدة لهذه المرأة التى اختفت والتى لم يسمع عنها أحد . وبينما اهتم الزوج ببرى القلم . . أكملت الوسيطة حديثها بصوت لاهث « زوجى من النوع الغيور لا يكف عن تعذيبى . . إنه يريد قتلى بالسم » .

أصيب المخبر السرى بدهشة كبيرة . فهو لا يستطيع أن يصدق ما يحدث حوله . فى بداية الأمر كان يتحكم فى نفسه حتى لا يبتسم . ولكن الآن أخذ ينظر حوله وبكل فضول متتبعا ردود فعل الحاضرين وقد التصق كل منهم بالآخر . ووسط هذا الجو المظلم الكئيب أكملت الوسيطة قصتها كتابة أحيانا ، وبرواية أحيانا أخرى .

كانت الفتيل وزوجها ، طبقا لما رواه الوسيطة ، يقيمان فى محميات أقيم مكانها اليوم مبنى حديث مكون من خمسة طوابق . ولدت المرأة وسط عائلة ميسورة الحال على عكس الزوج .

فجأة تحول صوت الوسيطة ، فأصبح شديد الخشونة حافلا عميقا ، وأخذت تنذر : « خذى هذه ! » وكان الصوت للزوج الذى يريد قتل زوجته بالسم . لقد كانت المرأة تتعاطى كل يوم نسبة بسيطة محددة من السم . ومرور الأيام بدأت صحتها تضعف ، وهذا الزوج يتعجل تلك المؤامرة القطيعة التى دبرها لزوجته بالقتل بالسم على جرعات صغيرة .

فى أول الأمر تصور المخبر السرى أن العرافة تقوم بتمثيل دور الوسيطة . فأخذ يتأمل وجوه الحاضرين بادئا بالزوج . وهل هم حقا يصدقون ما تفعله تلك المرأة أو أنهم يتظاهرون بذلك ؟ ! أخذ صوت الوسيطة يتحول تارة للزوجة وتارة للزوج الشرير الذى يأمرها بتعاطى السم .

عند هذه الكلمات المكتوبة تحدثت الوسيطة بصوت حاقت كما لو كانت تحدث نفسها . أو كما لو كانت تخشى أن يسمعها أحد . إنها حائلة من انتظام ذلك الزوج الجلاد . فهى تعرف أنه يريد لها الموت ، ولكنها لا تقوى على مواجهته . وهى تعرف أيضا أنه يفضل عليها لاعبة أكروبات تعمل بالسيرك .

أحس المخبر السرى أن الوسيطة بالغت ، وأنها فاقت الحدود . . إنه بالفعل القالب التقليدى للقصة الشعبية المعروفة . ومع ذلك أخذت الوسيطة تصف ما حولها بكل دقة « امرأة مثيرة تؤدى ألعابها تحت خيمة السيرك وأمام مئات النظرات القلقة » . بعد أن « برى » الزوج قلم الرصاص أخذ يقرأ البقية متتبعا تطوير الأحداث على الصفحة . . كانت الزوجة المسكينة تنتظر مولودا ، ولكن الزوج الشرس استمر فى تصرفاته الشاذة تجاه زوجته ، واستمر فى عمله الهدام ، وأحست الزوجة أن كل يوم يمر عليها . . يؤدى بها إلى محاولة أكيدة لدفعها إلى الانهيار وبلا مقاومة أو صراع ضد هذا الموت البطىء . .

لم تتخذ صورة العنف هذه المرة . تناولت جرعات السم ولكن مع ضربات مبرحة . . انهارت الوسيطة وقد مدت جبهتها إلى الأمام على المائدة ، وفوق الورق أخذت تئن « طفل ! طفل ! »

وهنا بدأ المخبر السرى يشعر بوحشية الموقف فشعر بالضيق . إذ وجد أن العرض أصبح غير لائق . فأخذ يقاوم رغبته فى الوقوف والانصراف ، ولولا اندماج بقية الحاضرين وتأثرهم الشديد . . لخرج على الفور . . تمالك نفسه قائلا إن لحظة الانصراف لم تحن بعد . وبنفس أسلوبها الإيحائى والضغط على الأحاسيس والمشاعر . . بدأت الوسيطة تحكى كيف إن هذا الجلاد فاقد الحس قاسى القلب ، استمر فى ضرب زوجته التى تحمل له الكائن الصغير . كانت الأمومة هى آخر أمل تتعلق به الزوجة ، مثل غريق ضائع يبحث عن النجاة . إلا أن الزوج نزع منها آخر أسباب الحياة . وتهاوت المرأة دون إدراك . لا تدرى من يستطيع إنقاذها من هذا الجحيم وهذا السقوط . فالذين يشاركونها مخاوفها لا يصدقونها ، لذلك كتبت لأخيها الذى يقيم فى فنزويلا . . تشكو له قسوة زوجها . وكان هذا هو ملجؤها الأخير . بعد فترة من الوقت رد الشقيق طالبا من أخته الهجرة إليه والعيش معه تاركة هذا الزوج الشرس . وأكملت الوسيطة قائلة : « أختى الحبيبة . . تعالى . يجب أن تنقذى حياتك وحياة طفلك . »

تصميم محمد ابراهيم

أما زوج الوسيطة الذى انتهى توا من قراءة الخطاب بصوت أجش . فقد سكت فجأة ، ومن شدة التأثر أخذت الوسيطة تهتز وترتعد بعنف وجنون الخان . ليستأنف القلم السباق الذى ترجمه صوت الزوج من جديد . لم تتمكن الزوجة المسكينة الشجاعة لتلحق بأخيها . لقد مات الطفل قبل موعد الوضع ، وكانت الضربات التى تلقتها الأم سببا للوفاة . بقيت المرأة لساعات طويلة فوق سرير حقير بجانب الضحية الصغيرة دون أن يحاول إنقاذها أحد . كانت تعرف منذ تلك اللحظة أن كل شىء سوف ينتهى كما قالت الوسيطة : « لتنتهى آلامها وحياتها معا » .

بدأ المخبر السرى غاضبا ثائرا . كيف إنهم يحتملونه أحمق هذه الدرجة . فدأ يضغط على أسنانه . لكنه لم يستطع الدفاع عن نفسه ، فأحس كأنه يعيش كابوسا حقيقيا مع هذه العرافة وتلك الصورة الوهمية التى لا يمكن تصديقها . للحظة أحس أنه يسمعها ويراها تماما كما لو كانت أمه . بدأت الوسيطة تتلوى من شدة الألم ، تعلقت الأم بزوجها ، وبصوت مخنوق ووسط حشرجة الموت أخذت تصرخ : « سوف أموت ! . . لقد وضع فى السم ! . . إنى أتألم ! . . سوف أموت ! . . . »

وأسلمت المرأة الروح وسط آلامها العنيفة لتنتهى القصة عند هذا الحد . وكما اعتقد المخبر السرى الذى استعد للنهوض . ولكن فى الحقيقة فإن الوسيطة لم تنته بعد . لن يترك الزوج الشرس جسد زوجته المسكينة جامدا يرقد فى سلام القبور . خوفا من أن يقع فى قبضة العدالة ، وحتى لا يتهم بأنه ترك زوجته دون إسعافات حتى الموت . . فكر بسرعة . . وهنا أخذ القلم الرصاص يجرى من جديد ، وأصيب المخبر السرى بالذهول . وأخذ يسأل نفسه فيما يمكن أن تخترعه الوسيطة . فلم يبق شىء لتكتمل الأكذوبة . ولكن طبقا لرواية الوسيطة . . أخذ الزوج يقطع زوجته بواسطة منشار إلى أجزاء كومها داخل كيس ، ثم ألقى بها فى مزبلة عمومية .

وانتظر المخبر السرى البقية . ولكن هذه المرة أسدل الستار على الفصل الأخير . وبتمديل أخذ الزوج يمسح وجه الوسيطة التى خارت قواها من شدة التعب . وانهارت على مقعدها بينما استمرت بضع قطرات من الدموع فى الانسياب ، وبطء حرك الزوج بقدمه المفتاح الكهربائى ، وانتشر النور ليعم من جديد تدريجا . ويضىء تلك الوجوه الداكنة . وأحس المخبر أنه يقبض من كابوس حقيق ، عاشه لكنه لم يصدقه . وبغيظ شديد أخذ يلوم صديقه بينه وبين نفسه . . هذا الصديق الذى أتى به ليشاهد هذه التراجيديا الكوميدية . لكنه لم يجرؤ أن يقول له شيئا واكتفى بالنظر إليه فى غيظ . بعد صمت طويل سأله أحد الحاضرين : « ماذا سوف تفعل أيها المخبر؟

وبالنسبة للمخبر جاء هذا السؤال ليكون قمة غباء الحاضرين . . هؤلاء الناس الذين لم يعتقدوا فقط أنه صدق القصة اللعينة ، بل يريدون منه أيضا التصرف . . ومهما حدث كان من الصعب عليه أن يضحك فى وجوههم أو أن يسخر منهم علنا . فما زالت ملامحهم تحمل آثار تلك التعبيرات المأساوية .

لذلك وجد المخبر السرى لنفسه مخرجا كاذبا . . شرح أنه طبقا لما حدث أمامه . . فإن الوقائع دارت فى عام ١٩٣٩ ، أى منذ أربعين عاما . وهذه مدة كافية لإسقاط أى حق قانونى .

لذلك فلا فائدة من اتخاذ أى اجراء مضاد ، ومع ذلك هتف الحاضرون أنه يمكن على الأقل العثور على الزوج . ولكى يتخلص المخبر من تلك الجلسة وحتى ينصرف بأسرع ما يمكن ، وعد بأنه سوف يبحث عن ذلك الزوج ، لم يتخيل المخبر السرى أن هذا الوعد سوف يقوده إلى سلسلة من الأحداث التى لا يمكن تصديقها . فهذان الزوجان لهما وجود فعلى . وبالبحث فى أرشيف مقر عمدة مرسيليا عثر المخبر على اسم الرجل وزوجته . . الذين جاءا من الأندلس للإقامة فى مرسيليا . وبعد أن طردا بسبب نشوب الحروب الأسبانية عام ١٩٣٧ . ومع ذلك لم تكن تلك المعلومات تأكيدا كاملا . وهذا لأن الوسيطة تبلغ الثانية والستين من عمرها . ويمكن أن تكون العرافة قد عاصرت تلك الأحداث . ولكنه أثناء سفره إلى باريس التقى بصديق انجليزى الجنسية رئيس فرقة بوليس السكرتارية العامة لانتربول باريس . ومثل كل الإنجليز جمع ذلك الصديق بين التشكك والسذاجة . الشىء الذى يصنع منه رجل بوليس من الطراز الأول . وهذا لفضوله الزائد .

وجريا وراء هذا الفضول المسلى رأى الرجلان أن يدفعا بالأحداث إلى المنتهى . فأرسلا فى طلب المعلومات من المكتب المركزى لانتربول مدريد . ليرد بالحروف الكبيرة أنهم لا يعرفون تاجر البن . لكنهم تعرفوا على اسم الزوج الذى حكم عليه بالسجن بتهمة الاحتيال .

تزوج الزوجان فى عام ١٩٣٧ من فتاة ولدت فى أسبانيا فى ١٨ يونيه عام ١٩١٥ . بعد ذلك غادر الزوجان أسبانيا ، ولما أن شقيق القتيل يعيش فى فنزويلا فقد طلبت المعلومات من مكتب انتربول كراكاس . وبعد ثمانية أيام تلقى انتربول باريس رسالة مذهلة أفادت بأن هذا الشقيق ولد فى أسبانيا يوم ٦ يناير عام ١٩٠٤ ويعمل بالتجارة . وبسؤاله اعلن أن شقيقه تزوجت فى أسبانيا فى بداية الحروب الأهلية من جار يعمل تاجر بن . وكان الشقيق وأسرته ضد هذا الزواج ، إذ كان الزوج سيىء السمعة . ومع بداية الحرب الأهلية سافر الشقيق للاستقرار والإقامة فى فنزويلا . بينما سافرت الشقيقة وزوجها للإقامة فى مرسيليا ، وتبادل الشقيقان الخطابات حتى صيف عام ١٩٣٩ ، وأثناء الحرب كتب الشقيق إلى مقر مدخل « الرون » طلبا للمعلومات . فردوا عليه قائلين إن الزوج تقدم فى شهر أغسطس ١٩٣٩ إلى البوليس يبلغ عن اختفاء زوجته .

وفى بداية شهر سبتمبر تعرف البوليس على جثة الزوجة التى عثروا عليها أشلاء وسط مزبلة عمومية ، وظاهريا لم تكن الجريمة عالقة أو مرتبطة بالزوج ، ولكن ظل الشقيق يشك فى مقتل أخته . رغم أنه لم يستطع تتبع الأحداث ، إذ نشبت الحرب فى أوروبا .

وبعد الحرب فى عام ١٩٤٥ حاول الشقيق استئناف البحث عن أخته ولكن دون جدوى . وبعد أن علم المخبر السرى بتلك المعلومات الجديدة أخذ يبحث فى أرشيف وسجلات البوليس الخاص بمرسيليا . وتلقى تأكيدا جديدا : تم العثور بالفعل على جثة امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها زوجة لتاجر بن . عثر عليها وبعد أن مزقت إلى أجزاء ، وألقى بها وسط مزبلة عمومية يوم ١١ سبتمبر عام ١٩٣٩ . وقبل ذلك بخمسة عشر يوما تقدم الزوج إلى البوليس يخبر عن اختفائها . فى هذه الأثناء ابحث الحقيقة من داخل الكيس لتكشف عن الزوج القاتل . لكن مع ذلك لم يبد الزوج أى قلق . فالعملية لم تكتشف أبدا . إلا هذه المرة عندما وصلت إلى أذن صحى . وهنا بدأت المشكلة ، وبعد أن تولت الصحافة نشر الخبر فى الصفحة الأولى . الذى جعل من مكتب الوسيطة أسطورة حقيقية . بطلة هذا الحدث الغريب التافه المبتذل .

لقد حرص المخبر السرى ألا يطلع الصحفيين على أنه قد عثر على القاتل فى باريس ، الذى استغل نشوب الحرب فغير اسمه . وتحول إلى رجل عجوز ممزق يعيش مترهبا فى حجرة تحت السلم داخل منزل صغير فى إحدى الضواحى . يحلة أبناء لاعبة الأكروبات وهم جيش من الأطفال يظهرون عند نهاية كل أسبوع . . أما لاعبة السيرك فكان لها الوجود الفعلى باستمرار وطبقا للوصف الذى أعطته الوسيطة . ومع ذلك وبعد أن فكر المخبر السرى طويلا فى صمت فى آخر فصل غامض من هذه المسرحية الغريبة . . وبعد أن نشرت الصحف الخبر ، تقدم رجل طالبا مقابلة الوسيطة . إنه واحد من عمال الحفر الذين عملوا فى عام ١٩٥٢ فى هدم المنحبات حيث عاش القاتل خمسة عشر عاما مع زوجته التعيسة . وكان هذا العامل هو الوحيد الذى يملك مفتاح ذلك السر العجيب .

عندما نزع ونددا بأحد الألواح الخشبية . . عثر على حقيبة حديدية صغيرة وقد غطاها الصدأ ، ووجد بداخلها كراسة ، بها مجموعة من الصور والخطابات المكتوبة باللغة الأسبانية . . كما تم العثور على بعض الأظرف الآتية من أمريكا الجنوبية . فأغلق العامل الحقيبة وذهب ليسلمها لآخر شخصين أقاما فى هذه المنحبات .

وعندما سأل المخبر السرى عن هذين الشخصين . . قيل له إنهما الوسيطة وزوجها . وكانت تلك هى النهاية المتوقعة التى جعلت المخبر السرى يحتفظ دائما بابتسامته المثيرة الخالدة . □